﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تـنـوُّع أهـوال الـقـيـامـة وأحوالِها

لمّا بيَّن الله تعالى صحَّة وقوع الحشر، وأخبر عن وقوعِه؛ ذكر تفاصيل أهوالِه وأحوالِه، فأوَّلها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ الآيَة[1].

وأيضًا لمّا أخبر عن ما يقع للمبطلين المنكرين البعث من الخسران والذِّلَّة والخيبة؛ عمَّ الهول مصوِّرًا حالَهُ في قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ الآيَة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَاثِيَةً ۚ﴾: أصلُ (جثو) يدلُّ على هيئَةِ الخاضعِ الذَّليلِ، جثا يَجْثو جُثوًّا وجُثِيًّا: جلس على رُكبَتَيهِ للخصومة[3]، نحو: عتا يعتو عُتوًّا وعتيًّا، وجمعه جُثِيَ، نحو: باكٍ وبُكِيَ، وقوله ﷻ: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: 72]، يصحُّ أن يكون جمعًا، نحو: بكي، وأن يكون مصدرًا موصوفًا به، والمراد بالجاثية في الآية: الباركةُ على الرُّكَبِ، وهي جِلسةُ المُذنب الخائف المُخاصَم بين يدَي الحاكِم ينتَظر القضاءَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـجُـثـوُّ عـلى الـرُّكـبـةِ يَـلـيـقُ بالخائِفِ

يهتمُّ النَّصُّ الكريم بالحديث عن أهوال يوم القيامة؛ لكي يفيء

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 680.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 104.
(3) ابن سيده، المحكم: (جثو).

النّاس إلى رشدهم، ويستعدّوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح، فقال الله تعالى: وترى في ذلك اليَوم يا محمَّدُ ﷺ أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ قَضاءَ اللهِ تعالَى وحُكمَه عليهم، وكلُّ أهلِ مِلَّةٍ تُدعَى يومَ القِيامةِ إلى صَحائِفِ أعمالِها الَّتي كتبَتْها الملائكةُ، يُقالُ للأُمَم يومَ القِيامةِ: اليومَ تَنالونَ جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُقالُ للأُمَم يومَ القِيامةِ: هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بجَميعِ أعمالِكم الَّتي كتَبَتْها الملائكةُ، فيُبَيِّنُها بما هو موافِقٌ للحَقيقةِ والواقِعِ دونَ زِيادةٍ أو نُقصانٍ، إنّا كُنّا نَأمُرُ الملائِكةَ أن تَكتُبَ ما كنتُم تَعمَلونه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

جثوُّ الأمم يوم القيامة يعمُّ الجميع

جاءت جملة: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ بطريق الوصل بالواو؛ عطفًا على الجملة الفعليَّة: ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وتقدير الكلام: ويوم تقوم السّاعة يخسر المبطلون، ويوم تقوم السّاعة ترى كلَّ أمَّة جاثية[2]، ومناسبة العطف التَّشريك في عظم الهول وتعميمه.

نوعُ فعل الرُّؤية:

المقصودُ من الرُّؤية في قوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾ الرُّؤية البصريَّة[3]، فيتعدَّى الفعل إلى مفعول واحدٍ، وهو قوله: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، وهو الظّاهر من مناسبة السّياق في بيان هول الموقف وشدَّته، وأجاز الزَّركشي أن تكون الرُّؤية قلبيَّة، فيتعدَّى الفعل إلى مفعولين[4].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 101، والواحديّ، الوسيط: 4/ 100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 174، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 271.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 440.

(3) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 593، وابن عادل، اللباب: 17/ 369، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 440.

(4) الزّركشي، البرهان: 4/ 149.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع (تَرَى):

لتحقُّق الرُّؤية وتصويرها رأي العَيْن؛ عبَّر عنها بالفعل المضارع

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: (تَرَى) - مع أنَّ المراد منه الاستقبال؛ لأنَّ التَّقدير يوم تقوم السّاعة ترى كلَّ أمَّة جاثية - لتصوير الحالة الَّتي ستقع، ولبيان أنَّ الرُّؤية محقَّقة، فهي بمنزلة وقوعِها في الحالِ، أو يقال: إنَّ الفعل المضارع لمّا كان دالًّا على الحال أو الاستقبال؛ عبَّر به للدَّلالة على الاستقبال.

بلاغةُ مجيءِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر:

رسولُ الله ﷺ شاهدٌ على جثوِّ جميع الأمم

لمّا كان حقُّ الخطاب أن يكون مع مخاطَبٍ معيَّنٍ؛ كان التَّعبير بالفعل بصيغة الخطاب في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّه لايُقصَد به مخاطبٌ معيَّن؛ قصدًا إلى تفظيع الحالِ وما يقع لكلِّ أمَّة بحيث إنَّه قد بلغت الحالُ يوم تقوم السّاعة من ظهور جثوِّ كلِّ أمَّة، ودعاء كلِّ أمَّة إلى كتابِها إلى حيث يمتنع خفاؤُها ألبتَّةَ، فلا تختصُّ براءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من يتأتّى منه الرُّؤية فله مدخل في الخطاب، فالمراد من الخطاب بلفظ (تَرَى) أنَّ كلَّ أمَّة تكون على حالٍ ووصفٍ، بحيث إذا طلبها طالب رآها على تلك الحالِ والوصف، وليس ضمير المخاطَب لواحد مخصوص معيَّن دون غيره[1]، ويحتمل أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ للرَّسول ﷺ[2]؛ تسليةً له وأنَّه في مكانٍ بحيث يكون شاهدًا على جميع الأمم، وعلى هذا الوجه يكون الكلام على مقتضى الظّاهر.

نكتةُ التَّعبير بتركيب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ دون الجمع المحلّى بـ(ال) في (الأمم):

كلُّ أمَّةٍ جاثية يوم تقوم السّاعة، وكلُّ فردٍ منها يكون جاثيًا

عبَّر بتركيب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ دون أن يقال، وترى الأمم جاثيةً؛ لأنَّ في قولِه: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ إيذانًا بأنَّ كلَّ أمَّة من الأمم المجموعة، تكون وحدها يوم الحشرِ والحساب، كما أنَّ التَّعبير بـ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ يفيد أنَّ كلَّ فردٍ

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل، ص: 831 - 832.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 82.

من أفرادِ تلك الأمَّة الجاثية يكون جاثيًا؛ لأنَّ لفظ ﴿كُلَّ﴾ يقصد به العموم على سبيل استغراق الأفراد لا المجموع، فيفيد تركيب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أنَّ كلَّ أمَّةٍ من الأمم الفائزة أو الخاسرة تكون جاثية على سبيل النَّصِّ على كلِّ فردٍ ضمن مجموع الأمَّة.

نكتةُ استعمال ﴿أُمَّةٍ﴾ دون مقارباتها:

أهلُ كلِّ دين يكونون على حدةٍ في الجثوِّ والحساب، والمؤمنون على حدةٍ والكافرون على حدةٍ

الأمَّة هي الجماعة العظيمة من النّاس الَّتي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها، ويكونون مجتمعين على طريق واحدٍ بحيث يتميَّزون من غيرِهم[1]، والمقصود بالأمَّة هنا أنَّه قد جمعهم دين واحدٌ، فعبَّر بلفظ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ للإشعار بأنَّ أهلَ كلِّ دين يكونون على حدةٍ في الجثوِّ وفي الحساب، والظّاهِرُ عُمومُ كُلِّ أُمَّةٍ مِن مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، فيشمل الفائزة والخاسرة - كما تقدَّم - ويؤيِّده قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، وبدليل التَّفريع في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[2]، وذلك الجثوُّ يكون عند الحساب، ونقل بعض المفسِّرين أنَّ ذلك خاصٌّ بالكفّار[3].

دقة التَّعبير بمفردة ﴿جَاثِيَةً﴾:

الجثوُّ جلسة الخائف المخاصِم المعظِّم بين يدي الحاكم

من روائع التَّعبير القرآني التَّعبير بلفظ ﴿جَاثِيَةً﴾؛ لتصوير حالةِ كلِّ أمَّة يوم الحشر، وليس من لفظ يحمل المعاني المعبِّرة عن حالِ اجتماع الأمم في ذلك الموقف، مثل مفردة ﴿جَاثِيَةً﴾؛ لأنَّها تفيد أنَّ كلَّ أمّةٍ على حدةٍ تكون مجتمعة مستوفزة خائفة قلقة غير مطمئنَّة، باركةً على ركبها لا تحملها أقدامها لعجز النّاس عن القيام لما اعتراهم من الشِّدَّة من هول ذلك اليوم، فتنتظر الحساب والقضاء الحازم الجازم من الله تعالى راجيةً النَّجاة، والجثوُّ جلسة الخائف

(1) الراغب، المفردات: (أمم)، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 88.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 680.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 174، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 425.

المخاصِم المعظِّم بين يدي الحاكم، فكلُّ هذه المعاني مجتمعةً تفيدها مفردة ﴿جَاثِيَةً﴾ في سياق قولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[1].

علاقةُ مفردة ﴿جَاثِيَةً﴾ بموضوع السّورة:

كلُّ أمَّة ستحضر جاثية للقضاء عند الله تعالى

لمّا كان موضوع السّورة هو الشِّكاية من الكفّار والمتكبِّرين، وبيان شريعة الإسلام والإيمان، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان، وذَمُّ متابعي الهوى، وذلُّ الناس في المحشر؛ ناسب أن يكون لفظ الجاثية اسمًا للسّورة؛ للإشعار بهول موقف المتكبِّرين على الشَّريعة، المتَّبعين الهوى المنكرين للبعثِ، وأنَّ استهزاء الكافرين بالمؤمنين لن يمرَّ من دون حساب، فإنَّ كلَّ أمَّة ستحضر جاثية للقضاء عند الله تعالى.

توجيه إعراب ﴿جَاثِيَةً﴾ وتنوُّع المعنى:

تعدَّدت إعرابات اللَّفظة بحسب معاني الرُّؤية

لمّا كان الظّاهر أنَّ لفظ الرُّؤية في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الرُّؤية العينيَّة، الَّتي تأخذ مفعولًا واحدًا؛ كان لفظ ﴿جَاثِيَةً﴾ حالًا من المفعول به ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾[2]، الَّذي أقيم مقام المعرفة لِما فيه من معنى العموم، وسبب مجيء الحال تجسيد المشهد المهول في ذلك اليوم العصيب، ويحتمل أن يكون ﴿جَاثِيَةً﴾ صفة للمفعول به على اعتبار أنَّه نكرة وما بعد النَّكرات صفات، ويكون المراد بيان وصفِ كلِّ أمَّة الملازم لها في وقت انتظار قضاء الله تعالى فيها، ففيه إيماء إلى طول جثوِّهم في وقت انتظار القضاء.

والفرق بين الحال والصِّفة في التَّوجيه هو أنَّه على الحال يكون قد أخبر بخبرين، **الأوَّل**: هو رؤية كلِّ أمَّة من الأمم بمعنى رؤيتها حاضرةً، **والثّاني**: هو رؤيتها جاثيةً، وأمّا على الوصف؛ فإنَّ الكلام

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 48، والنّحاس، معاني القرآن: 6/ 431، وابن جرير الطبري، جامع البيان: الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 231، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 88، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 174.

(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 593، وابن عادل، اللباب: 17/ 370.

على معنى جملة واحدةٍ، وظاهر كلام الزَّركشي أنَّه يجوز أن يكون الفعل (تَرَى) من الرُّؤية القلبيَّة أو العلميَّة، فيأخذ مفعولين، ويكون ﴿جَاثِيَةً﴾ مفعولًا ثانيًا[1].

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

القيامة مواقف، ففي بعضِها قيام ينظرون، وفي وقت القضاء جاثون على الرُّكب

قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، وقال تعالى في الزمر: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: 68]، فما هو سبب اختلاف الوصف في الآيتين، وجوابه أنَّ القيامة مواقف، ففي بعضِها قيام ينظرون، وفي وقت القضاء جاثون على الرُّكب.

مناسبةُ الفصل في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ﴾:

الخوفُ من الحساب يجعل الأمم جاثية يوم القيامة

جاءت جملةُ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ على طريق الفصل؛ لتكون استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّها في تقدير جواب سؤالٍ يعرض؛ لبيان سبب جثوِّ الأمم[2]، فكأنَّه قيل: ما سبب جثوِّ كلِّ أمَّةٍ من الأمم يوم تقوم السّاعة؛ لأنَّ جثوَّ الأمم مشعرٌ بالخوف والشِّدَّة والقلق؟ فكان الجواب في بيان السَّبب واستكمال الموقف: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾، أي: لأنَّ كلَّ أمَّةٍ مدعوَّةٌ إلى كتابها، الَّذي تُحاسب به.

دلالةُ استعمالِ لفظ العموم ﴿كُلُّ﴾:

دعوةُ الأمم تشمل الأفراد دون النَّظر إلى عقائدهم

لمّا كان لفظ (كلّ) من ألفاظ العموم، ويُستعمل اللَّفظ عند إضافتِه إلى النَّكرة لاستغراق أفراد المضاف إليه، بمعنى أنَّ الحكم يتناول جميع أفراد ما أضيف إليه (كلّ) نصًّا في كلِّ فردٍ وعلى المجموع لزومًا[3]؛ أفاد التَّعبير بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ الحكم على كلِّ أمَّة بأنَّها تُدعى إلى كتابِها، أي: كلُّ أمَّةٍ أمَّةٍ، ويلزم منه أن يُدعى كلُّ فردٍ فردٍ من الأمَّة، كما أفاد

(1) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 149.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 252، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.
(3) السّبكي، الإبهاج في شرح المنهاج، تح: الزمزمي: 4/ 1235.

اللَّفظ لزومًا استغراق جميع الأمم، أي: الحكم على مجموع الأمم بأنَّها تُدعى إلى كتابِها من غير فرقٍ بين أهل الأديان المتَّبعين للرُّسل وغيرِهم من أهل الشِّرك، أو من الملحدين والدَّهريِّين واللّادينيّين.

سببُ إيثار التَّعبير بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾:

أوثر التَّعبيرُ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ دون أن يقال مثلًا جميع الأمم يدعون إلى كتابهم، أو يقال: الأمَّة تدعى إلى كتابِها؛ لأنَّ لفظ (كُلُّ) هو نصٌّ في عموم أفراد ما أضيف إليه، ولأنَّه ليس في كلام العرب كلمةٌ أعمُّ منها تفيد العموم، فكان الأقضى لحقِّ البلاغة التَّعبير بلفظ يستغرق كلَّ أمَّةٍ من الأمم، ويستغرق أفراد كلَّ أمَّةٍ من الأمم كلِّها، فقال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾، ففي التَّعبير بيان لهول الموقف يوم القيامة، باجتماع الخلائق على شكل أمم، مع الحكم على كلِّ فردٍ فردٍ بأنَّه يُدعى إلى كتابِه؛ ليُجزى على عملِه.

بلاغةُ النَّظم في تكرار (كُلُّ أُمَّةٍ):

جثوُّ الأمم يوم القيامة يكون قبل استدعائِها إلى الحساب

قد يقال: لو قيل: (وترى كلَّ أمَّة جاثية تُدعى إلى كتابها)؛ لأغنى عن الإطالة، والجواب أنَّ تكرارَ تركيب (كُلُّ أُمَّةٍ) أقضى لحقِّ البلاغة، فإنَّ الغرض هنا هو الإسهاب؛ لأنَّه موضعُ إغلاظ ووعيد وتهويلٍ بمعنى أنَّ كلَّ الأمم تجثو، ثمَّ تُدعى كلُّ أمَّة إلى كتابِها، فتذهب إليه للحسابِ، أي: يذهب أفرادُها للحساب، كما أنَّ في إعادة (كُلُّ أُمَّةٍ) دفعًا للَّبسِ وإيضاحًا للمقصود، فإنَّه لو قيل: (وترى كلَّ أمَّةٍ جاثيةً تُدعى إلى كتابِها)؛ لأوهمَ أنَّ الجثوَّ والاستدعاءَ إلى الكتابِ يحصلان معًا، وهو خلاف المقصود، مع ما في إعادة الخبر مرَّةً ثانية من التَّهويل[1].

غرضُ تقديم المسند إليه على المسند الفعلي:

في قولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أفاد مجيء الخبر جملة

(1) ابن جنّي، المحتسب: 2/ 311، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

فعليَّة بتقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ تقوية الحكم وتحقيقه، بمعنى: تقرير أنَّ كلَّ أمَّة تُدعى إلى كتابِها، وأنَّه ما من أمَّة إلّا وتدعى إلى كتابِها، ولمّا كانت الأمم كثيرة؛ أفاد أنَّه ستُدعى أُمَّةٌ قبلَ أُمَّةٍ، وقومٌ قبلَ قومٍ، ورجلٌ قبلَ رجلٍ[1].

ما من أمَّة من الأمم إلّا وتُدعى إلى كتابِها

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في لفظ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾:

قرأ جمهور القرّاء: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ﴾ برفع ﴿كُلُّ﴾ على الابتداء، وقرأ يعقوب الحضرمي: ﴿كُلَّ﴾ بالنَّصب على البدل من ﴿كُلَّ﴾ الأولى، أي: في قولِه: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، وتكون الجملة الفعليَّة ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ على هذا التَّوجيه مفعولًا ثانيًا على تقدير: أنَّ يكون الفعل (تَرَى) من الرُّؤية العلميَّة؛ لأنَّ الدَّعوة إلى الكتاب ليست مبصرَةً إلّا على سبيل المبالغة، أو تكون الجملة حالًا أو صفةً لـ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، لكنَّها ليست صفةً احترازيَّة، بل لبيان عموم دعوة كلِّ أمَّة إلى كتابِها[2]، ومناسبة البدل هو أنَّ في ﴿كُلَّ﴾ الثّانية إيضاحًا لموجِبِ الجثوِّ وسببِه، أي: لأنَّ جُثوَّها ليس فيه شيء من شرح حال الجثوِّ، كما في الثّانية من ذكر السَّبب الدّاعي إلى جُثوِّها، وهو استدعاؤها إلى كتابها، للمجازاة على عملِها، فالجملة الثّانية أشرح من الأولى؛ فلذلك أفاد إبدالها منها معنًى زائدًا[3]، وكان مقصودًا في المعنى كما أنَّ معنى الجملة المبدل منها كان مقصودًا كذلك.

تنوُّع القراءة فيه تنويع للمعنى وتوسيع له

سرُّ اختيار لفظ ﴿تُدْعَىٰٓ﴾:

عبَّر بقوله: ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ دون أن يقال مثلًا: كلُّ أمَّة تُؤتى كتابها؛ لأنَّ لفظ ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ يُقصد به استدعاء كلِّ أمَّة وكلِّ فردٍ فيها بصوتٍ عالٍ مرتفعٍ، أو بما يفيد الإعلان والإشهاد أمامَ الملأِ لطلب حضورِهم،

يوم القيامة تُدعى كلُّ أمَّة فيها بصوتٍ عالٍ أو بما يفيد الإعلان أمامَ الملأِ لطلب حضورِهم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 82.

(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 1153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 441.

(3) ابن جنّيّ، المحتسب: 2/ 311، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 88، والهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 594.

والمقام مقام قضاء وفصلٍ وتهويلٍ في ذلك اليوم، فيناسبه الاستدعاء المقتضي كذلك ترقُّب المستدعَى لاستدعائه وحضورِه، كما يفيد لفظ ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ المسند إلى ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ أنَّ كلَّ أمَّة وكلَّ فردٍ مطلوب للقضاء، ولمّا كان الدُّعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم[1]؛ أفاد أنَّ كلَّ أمَّة تُدعى إلى كتابِها، فإنَّما تُدعى باسمِها، وكذلك كلُّ فردٍ يُدعى باسمِه، فيُفتضح المجرم، ويفرح المؤمن، ولو قيل: (تؤتى)؛ لكان في اللَّفظ تكريمٌ، بمعنى: أنَّهم يأتون إلى كتابِهم مكرَّمين، وهذا لا يناسبه المقام، وليس هو المقصود.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول:

التَّعبيرُ بصيغة الفعل المبني للمفعول ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ مناسب لهول الموقف، فلا تعلم كلُّ أمَّة، ولا يعلم أفرادها من أيِّ جهةٍ يأتيهم الاستدعاء، ولا يعلمون من الَّذي يستدعيهم، وجيء بصيغة المبني للمفعول؛ لأنَّه ليس المقصود بيان من الَّذي يدعو كلَّ أمَّة إلى كتابها، بل المقصودُ استدعاءُ كلِّ أمَّةٍ وأفرادِها وحضورهم إلى كتابِهم لأجل الجزاء.

العدولُ عن الفاعل إلى فعل الاستدعاء تهويلًا

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تُدْعَىٰٓ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿تُدْعَىٰٓ﴾؛ لتصوير حالة استدعاء كلِّ أمَّةٍ في ذلك اليوم المهيب.

دلالةُ استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

عبَّر بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ لبيان انتهاء الغاية من استدعاء كلِّ أمَّة، بمعنى أنَّه تُدعى، فتصل إلى كتابِها؛ لتُجزى بما عملت.

دلالةُ لفظ ﴿كِتَٰبِهَا﴾:

يحتمل أن يكون المرادُ من لفظ ﴿كِتَٰبِهَا﴾ الكتاب الَّذي تُسجَّل فيه الأعمال، أي: كلُّ أمَّة تُدعى إلى صحائف أعمالِها الَّتي تسجِّلها

كلُّ صحائف النَّاس يوم القيامة بمنزلة كتاب واحدٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (دعا).

حفظة الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: 19]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: 25]، وهذا الرَّأي ذهب إليه جمهور المفسِّرين، وعلى هذا التَّأويل يكون إفراد لفظ الكتاب على إرادة الجنس، أي: جنس الكتاب[1]، وتَكونُ إضافتُهُ إلَى ضَميرِ الأُمَّةِ عَلى إرادَةِ التَّوزيعِ عَلى الأفرادِ؛ لأنَّ لكُلِّ واحِدٍ مِن كُلِّ أُمَّةٍ صحيفةَ عَمَلِهِ تختصُّ بِه، فالعموم المستفاد من الجنس بدليٌّ، أي: كلُّ فردٍ يُدعى إلى كتابِه، ثمَّ يأتي فرد آخر وهكذا[2]، والنُّكتة في الإفراد دون أن يقال: (كلُّ أمَّة تُدعى إلى كُتُبِها) هو بيانُ أنَّ كلَّ الصَّحائف بمنزلة كتاب واحدٍ عند الله تعالى في الحفظ وسرعة الحساب، ويحتمل أن يكون المراد من ﴿كِتَٰبِهَا﴾ الكتابَ، الَّذي دُعيت كلُّ أمَّة إليه في الدُّنيا، من نحو القرآن والتَّوراة والإنجيل؛ ليُقارَن بين ما دعا عليه الكتاب، وبين أعمالِهم، فيُجزَون على وفق ما التزموا فيه من الأوامر والنَّواهي في كتابِهم[3].

سببُ تنوُّع الإضافة في قولِه: ﴿كِتَٰبِهَا﴾ و﴿كِتَٰبُنَا﴾:

إن قيل: كيف أضاف الكتاب إلى الأمَّة في قولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، ثمَّ أضافه إليه تعالى في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾؟ فما هو نوع الإضافة؟ وما سبب تنوُّعها؟ والجوابُ هو أنَّ الإضافة في اللَّفظين لأدنى ملابسة وأدقِّها؛ أمّا ملابسة الكتاب إيّاهم؛ فلأنَّ أعمالهم مثبتة فيه، فأُضيف الكتاب إليهم؛ لأنَّ كلَّ فردٍ له كتابٌ خاصٌّ به تُسجَّل فيه الأعمال، أو لأنَّ كلَّ أمَّة لها كتاب منزَّل عليها مختصٌّ بها، فصحَّت الملابسة، وأمّا ملابسة الكتاب لله تعالى؛ فلأنَّه مالك الكتاب الَّذي تُسجَّل فيه الأعمال، وهو تعالى الآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده، فمعنى كتابهم أنَّهُ الكِتابُ المُشتَمِلُ عَلى أعمالِهم، ومعنى كِتابِ اللهِ أنَّهُ مالكه، وأنَّه هوَ الَّذي أمَرَ المَلائِكَةَ بِكَتْبِهِ[4]، وقد يقال: إنَّ الإضافة في قولِه: ﴿كِتَٰبِهَا﴾ على معنى الاختصاص، فتدلُّ على معنى قولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: 13]، والمعنى: كلُّ أمَّةٍ تُدعى إلى كتابها الذي هو لها، وتُدعى إلى ما يختصُّ بها من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 367.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 231، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 188، وأبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 368، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 5/ 109.

(4) الإسكافيّ درّة التّنزيل وغرة التّأويل: 1/ 1117، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 681.

الأعمال صالحها وسيِّئها[1]، بمعنى أنَّ لكلِّ فردٍ كتابَه الخاصَّ به، فيكون جزاؤه على وفق أعمالِه، وأمّا إضافة الكتاب إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾؛ فعلى معنى المُلك، بمعنى: أنَّ الكتاب ملكه تعالى، وهو الَّذي يتصرَّف فيه، ولهذا جعله ناطقًا يبيِّن ما فيه، ويفصِح عنه.

كلُّ فردٍ له كتابه الخاصُّ به يوم القيامة، ومالك الكتاب هو الله تعالى

مناسبةُ الفصل في قولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

لم تعطف هذه الجملة على ما سبقها، وجاءت على طريق الفصل؛ لكمال الاتِّصال بها؛ لأنَّها بدل اشتمالٍ من جملة: ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بتقدير قولٍ محذوف، أي: يُقال لهم: اليوم تُجزَونَ على وفق أعمالِكم، وعلى ما يوافق كتاب دينكم من أفعالِكم الحسنات والسَّيِّئات[2]، وعلى هذا التَّوجيه يكون سبب حذف الفعل (يقال لهم) هو المفاجأة في المقول المناسب لمقام التَّهويل في ذلك اليوم.

الجزاء يوم القيامة على وفق الأعمال والكتاب المنزَّل من أفعال الحسنات والسَّيِّئات

ويحتمل أن تكون الجملة استئنافًا بيانيًّا؛ لتكون جوابًا لسؤالٍ مقدَّر يقتضيه السّياق، فكأنَّه قيل: لمَ تُدعى كلُّ أمَّة إلى كتابِها في ذلك اليوم؟ فكان الجواب: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، وإذا كانت الجملة استئنافًا بيانيًّا؛ كان الكلام على الالتفات؛ إذ كان الظّاهر أن يقال: اليوم يُجزون ما كانوا يعملون؛ ليكون على مساق التَّعبير بأسلوب الغيبة في الآية، لكنَّه عدل إلى الخطاب، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والنُّكتة في العدول إلى الالتفات الإشعارُ بأنَّ الحساب يكون على سبيل المواجهة والمخاطبة؛ لِيفيد الخطابُ المبالغة في التَّنديم والتَّوبيخ للكافرين والفرح والسُّرور للمؤمنين.

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 258.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 681، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 252.

وعلى القولِ بأنَّ الجملة استئنافٌ بيانيٌّ يكون سببُ مجيء الجملتين في الآية، بطريق الاستئناف البيانيِّ بيانَ هولِ الموقف وعظمتِه لشمولِه جميع الخلائق، ممّا يستدعي من المتلقّي السُّؤال عن سببِ كلِّ حدثٍ.

براعةُ موقعِ الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في النَّظم:

جاء ظرف الزَّمان ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في صدر جملة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فقدِّم على عاملِه لإفادة الحصر، بمعنى اليوم، وليس في أيِّ وقتٍ آخر تُجزون ما كنتم تعملون، ففيه تبكيت للكافرين بقطع ما قد يرجونه من تأخير الجزاء، وبشارةٌ للمؤمنين بسرعة حصولِهم على المكافأة، ولمّا كانت (الـ) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للعهد الحضوريِّ؛ كان المعنى هذا اليوم، أي: يوم تقوم السّاعة، وهو يوم الجزاء، ومن فوائد ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ التَّنويه بعظم هذا اليوم، وأنَّه يوم العدل والجزاء على أعمالِكم.

يـــوم تـقـوم السّاعة هو يوم العدل الأكبر

نكتة اختيار مفردة ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾؛ للإيذانِ بالمقابلة على الأعمال يوم تقوم السّاعة، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المبني للمفعول ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾:

عبَّر بصيغة الفعل المبني للمفعول في قولِه: ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾؛ لأنَّه ليس المقصود بيان الَّذي يجزي، وإنَّما بيان من يُجزى.

بلاغةُ إيقاعِ فعل الجزاء على ﴿مَا﴾:

لمّا قال تعالى: ﴿تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أوقع فعل الجزاء على الاسم الموصول ﴿مَا﴾، مع أنَّ الجزاء لا يكون نفسَ العمل الَّذي عمل في الدُّنيا، بل يكون مكافئًا له؛ لأنَّ مفهوم الجزاء يفيد أن يكون المجزيُّ مكافئًا للعمل، وليس نفس العمل، فإنَّ فعلَ الجزاء إن تعدَّى بنفسِه؛ كان المراد من الجزاء العوض المقابل المجعول جزاءً، وإن تعدَّى بحرف الباء؛

المـكـافـئ عـلى الأعمال مطابق تمامًا، فلا زيادة ولا نـقـصـان في الجزاء

كان المراد هو العمل المجزيَّ عليه بدلالة الباء التي للمقابلة، والنُّكتة في إيقاع فعل الجزاء على نفس الفعل المجزيِّ عليه، أي: على ﴿مَا﴾ هو بيان أنَّ المكافئ مطابق تمامًا لِما عُمِل، ففيه تصوير للعدل المطلق ذلك اليوم، فكأنَّ العمل يُتصوَّر بصورة الجزاء.

دلالةُ العمومِ في الاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلته:

أفاد الاسم الموصول ﴿مَا﴾ العموم، بمعنى: أنَّ الجزاء يكون على وفق الأعمال، الَّتي كانت في الدُّنيا، وأنَّه ما من عملٍ إلّا ويُجزى عليه، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، وعبَّر بتركيب ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارة إلى تنوُّع أعمالِكم الَّتي قدَّمتموها، وتكرُّرها منكم، وإلى أنَّكم كنتم تعملونها عمدًا حتَّى صارت جبلًّا وطبعًا لكم، وفي التَّعبير بهذا التَّركيب إشارة إلى أنَّه لا أحدَ يُؤاخذ بما عمل غيره، ولا بما أخطأ فيه، أو تاب منه.

سرُّ اختيارِ العمل دون الكسب:

يعلمُ اللهُ تعالى كلَّ عمل يعمله النّاس، وكلَّ ما كتب من الأعمال في الصَّحائف

عبَّر بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ دون تكسبون؛ لخَصوصيَّة لفظ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ المناسب للسّياق، وبيانه أنَّه لمّا ذكر الكتاب في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الَّذي يفيد أنَّ كلَّ عملٍ مكتوبٌ في الكتاب؛ ناسب أن يعبِّر بالعمل؛ للإشعار بأنَّه تعالى يعلم كلَّ ما هو مكتوب، وبأنَّ هذه الأعمال قد ثبتت في الكتاب، كما يثبت أثر الشَّيء؛ لأنَّ العمل هو إيجاد الأثر في الشَّيء[1]، كما أفاد التَّنبيه إلى أنَّ كلَّ عملٍ مكتوب هو ما كان بقصد منكم إليه؛ لأنَّ العمل ما كان بقصد[2]، كما أنَّه لمّا كان الكلام عن المؤمنين والكافرين؛ ناسب التَّعبير بلفظ يشملهم، فقال: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِفَ مفعول الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وهو العائد إلى الاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ لتقرير عموم ﴿مَا﴾؛ ليشمل كلَّ ما يُسمّى عملًا، ولرعاية الفاصلة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"